الشاحنة ،،، والرجل الذي لا يشبه أحدا

قمري البشير

1 ـ صـراخ آدمـي :
كـل النـاس يصرخـون .
أنـا أصـرخ أيضـا .
أمد أظافري الوسخة في وجه القطط السمينة ، وأخدشهـا .
هذا الرأس في قمة هامتي تسكنه رياح من خـط الاستواء .
كلهـم زرعوا في طريقنـا الالغـام :
الآبـاء المتعبـون .
الاسـاتـذة المحنطـون .
العـاهـرات المتـرهـلات .
وانا أصرخ أيضا / أفتح سجلا للتوقيـع بالبصمـات .

2 ـ تقريـر سـري :
فلان يقرأ الجرائد والروايات وأخبار الناس بكثرة . ستوب . لا ينام ما فيه الكفاية . ستوب . يقولون عنه أنه متزوج . ستوب . زوجته مشلولة لا تتحرك الا داخل المطبخ وفوق السرير . ستوب . في الشارع وفي أيام الحفلات تصير سلحفاة : ستوب .

3 ـ برقيـة مستعجلـة :
السـادة وزراء البتـرول العربـي /
تحيـة واحترامـا .
أنـ الموقـع أسفلـه ،
أحمد الذي يتنفس بصعوبة ، ويعاني مـن عقد كثيـرة ،
أطلب مـن فخامتكـم العمل على تخفيض ثمـن المحروقات ، لانـي لم اعد أقوى على تحمل مصاريف سيارتي لافيات التـي أملكهـا ، رغم أنـي أصنف كبورجوازي صغيـر .

أخيرا ، أتمنى أن تنظروا بعين الاعتبار في قضيتي ، علما بانـــي متزوج بامرأة مشلولة ومريضة باستمرار .

ودمتم للصالح العـام /

* كـل الناس يصرخـــون :

أحمد يخترق قشرة العالم الخارجي ، يشرئب بعنقه الى ما وراء جدار الشقة ، ويضع أسفل حذائه على أرضية الشارع .

الشاحنة تمر ، وعينه الزجاجية تتابع في استنكار وجه السائق ، وهيكل الشاحنة ثم المؤخرة المثقلة . وجهتها البيضاء ، ووجهته الفضاء .

انطلقت منذ البارحة في عبس الفجر من السهول الشرقية واخترقت خط الليمس ـ **الحد الفاصل بين المغرب الخصب والمغرب المجذور ، وهـو خط وهمي وضعه الرومان ، القصد منه فرض نظام اقطاعي على المغاربة البربر ، اذ لا يجوز لاحدهم امتلاك قطعة أرضية الا بعد قضاء خمس وعشرين سنة في الجندية** ـ ما عندنا غرض زيـد .

الشاحنة تمر : البرتقال الذي نشتهيه نحن والنساء الحوامل والاطفال المتسكعون يحرمنا منه سكان العالم رقم 1 ، وتقضمه الاسنان المدببة . منذ القديم اشتهرنا بالكلام ، نعطي كل شيء نملكه ، ونفتح أبوابنا للطارقين بالليل ، وننحر ذبائحنا احتفاء باله الحرب باريس ، وان كانت بنا خصاصة ـ جدنا الاكبر حاتم الطائي هو الذي أورثنا هذه العادة الرديئة ، منذ أن تخلى عن جواده لرجل يحب لحم الخيول ـ دمنا البرتقال : تمتصه المخلوقات الغريبة ، وتمتص معاملها الفوسفاط والحديد والمغنيز ، ونبقى نحن بلا أدوية ولا معالق ، نتدثر في فصل الشتاء بجلود الاغنام والجرائد ، وفي الصيف تسلط محافل السواح كاميراتهـا الوقحـة على هزالنـا .

الشاحنة الثانية تمر مزمجرة وتتلاشى خلف التل . تلاشى أحمد في داخله : كينونته عود ثقاب مبتل . ضرب باب المقهى برجله اليسرى وباليد اليمنى فتحه على مصراعيه . طلب فطوره الصباحي : زوجته في المستشفى وهو لا شهية له اذا كان بمفرده . لابد أن يأكل مع الناس ويسمع ارتطام الالسنة داخل الفوهات . تعود عليها رغم أنها مشلولة ولا تعرف القراءة والكتابة ، لا يخونها مع أخرى ، ويعود باكرا كل ليلة باكرا ليحملق معها في سطح الغرفة .

الشاحنة الثالثة تمر . رآها من خلف زجاج المقهى تصفع الطريق المعبد ـ **الصبايا العاملات في مزارع البرتقال دمى خشبية ، تتحرك من شجرة الى شجرة ، وتملأ السلال القصبية . كل واحدة في ذمتها سنة افراد أو سبعة . مطلقة كانت أو لم تتزوج بعد . الامر سواء ، يأتي الرجال**

ويحملون على ظهورهم السلال ويفرغونها في التراكتور . سائقو التركتورات الحمراء يفتكون بعوراتهن وألسنتهم البذيئة تلسع الثغور المحمرة ، وتنطلق العيون الى الارداف والصدور ، وقد أرخوا شواربهم التركية ، وفي أصابعهم خواتم فضية ، جلبها الحجاج من الاماكن المقدسة . أيادي الصبيات ملطخة بالطين وممتلئة بالبثور . جحافل الذباب لا تغادرها ـ اذن الرجال كالذباب ـ **وعند حلول موسم الفلات تبدأ الشاحنات في مغادرة سهول ملوية : البرتقال والاجاص والبطيخ والطماطم . رغم هذه الخيرات فان الاسعار كالزئبق ، والقطط السمينة هي وحدها التي تستفيد . آلهة الخصب النائمة فوق جبال الاولمب لا تختار سواها لتلقي باشارات العصا السحرية . بين يوم وآخر كثرث القطط السمينة في السهول والمرتفعات . ولاد بلحاج مثلا . هم خمسة وسادسهم صهرهم الذي قبل الزواج باختهم العانس . في يوم زفافها ذبحوا ستين كبشا ـ**

تلقى أحمد الدعوة وحضر الحفل . كان في عطلته السنوية . وأبوه يقيم بجوارهم في بوغريبة ـ **بوغريبة قرية فلاحية تقع على بعد حوالي عشرين كيلومتر من مدينة بركان ، وبها الكثير من القطط السمينة ـ**

ما عندنا غرض زيد ـ قالوا : (نستدعي أحمد . انه رجل طيب وكنا قد حضرنا حفلة زفافه مع « يمينة العرجة ») .

الشاحنة الرابعة تمر بسرعة أكثر من سابقاتها . يدخل أحمد عند صاحب الدكان الذي ينط كالنحلة ، ويسجل في الكارنيات الى آخر الشهر . أما هو فكان دبا قطبيا لا يشبه أحدا . ابيضت حوله الكرة الارضية ، وصارت البضائع على الرفوف ثلجا ثلجية . في الخارج تخشبت أطراف الناس وصارت سحناتهم فلينا قابلا للاحتراق .

* كل الناس يصرخون :

في الجامعة أمضى أحمد اربع سنوات ، وكان خلالها تمساحا يبكي ماضيه وتاريخه ، ويزحف كجندي فيتنامي ليوقف مفعول الحقن والاقراص التي أرغموه على ابتلاعها . الاساتذة موميات ملفوفة في غموض ومحنطة ، حلت يوما في مراكب فرعونية . فصارت قططا سمينة وهو بينهم تمثال من الثلج ، يكورون كراتهم ويقذفونه بها .

ـ 6

جدنا الاكبر هو الذي أورثنا هذه العادة الرديئة . والادهى من ذلك اننا على استعداد مستمر للتضحية بأبنائنا في كل لحظة من أجل

حفظ ماء الوجه . يقول في ذلك الحطيئة :

رأى شبحا وسط الظلام فراعه
فلما رأى ضيفا تشمر واهتما
وقال : هيا رباه ضيف ولا قوى
بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحما .
فقال ابنه لما رآه بحيرة
« أيا أبتي اذبحني ويسر له طعما .

ومن ذلك الوقت الى يومنا هذا ، صار حاتم الطائي شحاذا ، ينتقل من مكان الى آخر دون أن يهتم به أحد ، وتاتي جحافل السواح لتسطو عليه كاميراتها .

٧ ـ برقية ثانية :

السيد رئيس دولة البرازيل / اكبر دولة مصدرة لمادة القهوة / لم نعد نتحكم في أعصابنا بالمرة . كثرت المشاجرات ومشاهد الخصام بين المتزوجين . صارت دماؤنا تغلي وتصعد الى الرأس في أقل من ثانية . نرجو أن ترسلوا لنا ما يكفي من القهوة ، لنستطيع كظم الغيظ ولـ . . .

٨ ـ

الشاحنات تتوالى . والمطر ينزل بغزارة ، وأحمد دب قطبي يغوص برجله في المياه ، ويمنية نائمة في « السويسي » . الشاحنات عقبان تخطف الاجنة ، والمطر ينبت البرتقال ، وأحمد يتضاءل ، ويمينة ميتة لا محالة . الشاحنات مغولية ، والمطر لكل الناس ، وأحمد قرد داروينى لا يفر من واقعه . امتلأت أوداجه برائحة الطين المبلل ، فاشترى باقة ورود وبعض الفواكه . ركب الطاكسي الى المستشفى .

٩ ـ خبر من نشرة الوفيات :

« لقد تسببت الامطار التي تهاطلت في الاسبوع الاخير ، في العديد من الحوادث ، رغم محاولة قوات ضبط السير في التنظيم . وهكذا فقد داست شاحنة محملة بالبرتقال امرأة مشلولة كانت تريد قطع الطريق ، وبرفقتها زوجها الذي عاد بها من المستشفى . نرجو من السائقين ضبط أعصابهم عند السياقة ، وننصحهم بشرب القهوة السوداء اذا هددهم النـوم » .

10 ـ **تعليـــق عـــام**

ايمانا بجدوى الربط بين التراث والواقع المعاش ، فقد قرر الكاتـب العباسي بديع الزمان الهمذاني تغيير اسمي راوية مقاماته وبطلها ، ووقـع اختيـاره علـى أحمـد النبهانـي وحاتـم الطائـي . ومـن الآن فصاعدا نرجو القراء قراءة المقامة الدينارية كالاتي :

حدثنا أحمد النبهاني قـال :

« اتفق لي نذر نذرته في دينار أتصدق به على أسحذ رجل بـ . (ضعوا مكان الفراغ ما يناسبه) ، وسألت عنه ، فدللت على حاتم الطائي . فمضيت اليه ، لاتصدق به عليه ، فوجدته في رفقة ، قد اجتمعت عليه في حلقه ، وحولهم جماعـة السياح . لا تكف عـن الصيـــاح . . . »